الصعاليك

بسم الله الرحمـــــــــن الرحيم

الصعاليك

يختلف معنى كلمة صعلوك بين اللغة والاستعمال الأدبي. ففي اللغة جاء معنى ((الصعلوك: الفقير الذي لا مال له)).. ولا اعتماد. وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك. قال حاتم الطائي:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى

فكلاً سقاناه بكأسيهما الدهرُ

أي عشنا زماناً.

وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها، وانجروت، وطرحتها.

ورجل مصعلك الرأس: مدوره، صغيره.

وصعاليك العرب:ذؤبانها. وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنم.

والصعلكة في مفهومها اللغوي تعني الفقر، الذي يجرد الإنسان من ماله ويظهره ضامراً هزيلاً بين أولئك الأغنياء المترفين. حتى يدفعه الفقر إلى حالة من حالات التمرد على القيم والتقاليد، ويبدأ بمواجهة الحياة منفرداً، وقد يسلك في ذلك طرق الاغتصاب، والسلب والنهب، والقتل والجريمة. ويعتمد على الفروسية والقوة، والسيف والرمح. ولا ننسى أن كثيراً ممن خلعتهم القبائل أصبحوا في هذا الحزب.

تأبط شراً

١- اسمه ونسبه:

هو ثابت بن جابر بن سفيان، من قبيلة فهم. ويعد من أغربة العرب إذ كان ابن أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها. وقيل بل أمه حرة من فهم تسمى أميمة.

واختلف العلماء في تعليل لقبه(تأبط شراً) ويذكر صاحب الأغاني أن تأبط شراً((لقب بذلك لأنه رأى كبشاً في الصحراء، فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش حتى لم يُقلّه، فرمى به فإذا هو الغول. فقال له قومه: ما كنت متأبطاً يا ثابت؟ فقال: الغول. قالوا: لقد تأبطت شراً، فسمي بذلك))

والغول من أكاذيب العرب، يذكرونه في أشعارهم، ولا حقيقة له في الواقع. وفي ذلك يقول الشاعر:

الغول والجود والعنقاء ثالثة

أسماء أشياء لم توجد ولم تَكُنِ

ويورد صاحب الأغاني حكاية ثانية حول لقب (تأبط شراً) فيقول((لقب بذلك لأن أمه قالت له في زمن الكَمأة: ألاترى أن الحي يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها.فقال: أعطني جرابك، فأعطته، فملأه لها أفاعي. فلما راح أتى بهن في جرابه الذي أعطته متأبطاً به، فألقاه بين يديها، ففتحته فتساعين في بيتها،فوثبت وخرجت.فقال لها نساء الحي:ماذا أتاك به جابر متأبطاً له؟فقالت شراً فلزمته تأبط شراً)). وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات أي أنه كان يحمل الشر في نفسه، وينفذه لحظة تغدو الفرصة مناسبة. ويظهر أن أباه مات وهو صغير، فتزوجت أمه بأبي كبير الهذلي، وكان صعلوكاً كبيراً، فتتلمذ

ثابت على يديه حتى أصبح من الصعاليك المشهورين. وكان عمه(زوج أبيه) في كثير من غزواته، كما كان يرافقهما صعلوك ثالث يسمى عمرو بن براق.

ويذكر صاحب الأغاني ((أن تأبط شراً وعمرو بن براق والشنفري والسليك غزوا بجيلة فلم يظفروا منهم بغرَّة، وثاروا إليهم، فأسروا عمرو بن براق.وكتفوه وأفلتهم الآخران عدواً فلم يقدروا عليهما. ولما علما أن ابن براق أسر قال تأبط شراً للسليك: إمض فكن قريباً من عمرو، فإني سأتراءى وأطعمهم في نفسي حتى يتباعدوا عنه فإذا فعلوا ذلك فحل كتافه وانج. ففعل ما أمره به، وأقبل تأبط شراً حتى تراءى لبجيلة، فلما رأوه طمعوا فيه، وجعل يطمعهم في نفسه ويعدوا عدواً خفيفاً يقرِّب فيه ويسألهم تخفيف الفدية، وإعطائه الأمان حتى يستأسر لهم، وهم يجيبونه إلى ذلك ويطلبونه، وهو يحُضر إحضاراً خفيفاً لا يتباعد حتى علا قلعة أشرف منها على صاحبيه، فإذا هما قد نجوا، ففطنت لهم بجيلة فألحقتهم طلباً، ففاتهم فقال: يا معشر بجيلة أعجبكم عدو ابن براق اليوم، والله لأعدونَ لكم عدواً أنسيكم به عدوه. ثم عدا عدواً شديداً ومضى))

وكانت حياته صعبة بعد موت أبيه وزواج أمه من أبي كبير الهذلي ، الذي عرف الشر في وجه الغلام، واستراب من أمره، لكثرة ما كان يكثر الدخول على أمه. وقال لوالدته: ((قد والله رابني أمر هذا الغلام ولا آمنه، فلا أقربك منذ اليوم)).

ويظهر أن الوالدة لم تكن حريصة على وليدها المنكود بقدر حرصها على بعلها الجديد، فأشارت عليه بأن يقتله فيخلصها ويتخلص منه. فقال له أبو كبير ذات يوم:((هل لك أن تغزو معي)). فقال:((ذلك من أمري)) فخرجا ليلاً حتى إذا أدركهما مساء اليوم الثاني، أبصرا ناراً عن بعد. فوجهه أبو بكر إليها، فانطلق سريع الخطى حتى بلغها. فإذا عليها رجلان من ألص العرب، فوثبا إليه يريدان قتله. فرما أولهما بسهم، ثم رمى الآخر، فقتلهما. وأخذ ما على النار من الخبز. ورجع إلى أبي كبير يخبره بما حدث. فارتاع أبو كبير منه. فلما رجعا إلى الحي طلق أبو بكر امرأته ثلاثاً، وقال: ((إن أم هذا الغلام لا أقربها أبداً)). فحرمت الوالدة بعلها الذي ارتضته لنفسها، بسبب ابنها المشؤوم، التي رأت الشر كامناً بين يديه حتى لقبته ((تأبط شراً)).

٢- حياته:

ومهما يكن من اختلاف في الروايات حول هذا اللقب، فإنه على غرابته وطرافته يأتلف مع صاحبه، ويدخل معه في عالم الأساطير. فقد بات تأبط شراً مرادفاً للذعر والهول.فحسب هذا الصعلوك أن يتسمى لعدوّه حتى تصطك أمامه الركب وتنحل العزائم. فعرف كيف يستفيد به في غزواته كما عرف أن يستفيد به في البيع والمتاجرة. قيل:٠((لقيه ذات يوم رجل من بني ثقيف يقال له أبو وهب. وعليه حلة جديدة، وكان جبانًا أهوج فقال لتأبط شراً: ((بم تغلب الرجال يا ثابت، وأنت، كما أرى، دميم ضئيل؟)) قال: ((باسمي إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل: أنا تأبط شراً، فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت)). فقال له الثقفي:((هل لك أن تبيعني اسمك؟ قال:((نعم، فبم تبتاعه؟. قال: ((بهذه الحلة وبكنيتي)) فقال تأبط شراً لك:((لك اسمي ولي كنيتك)) وأخذ حلته و أعطاه طمرية، ثم انصرف، وفي ذلك يقول مخاطباً زوج الثقفي:

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها

تأبط شراً، واكتنيت أبا وهبِ

فبه تسمى اسمي وُسميُت باسمه

فأين له صبري على مُعظم الخطبِ

وأين له بأسٌ كبأسي وسُورتي

وأين له في كلِّ فادحةٍ قلبي

ومن الطبيعي أن لا يستفيد هذا الثقفي الأحمق من شرائه لقب الصعلوك وليست له شجاعة قلبه وإقدامه. فقد كان تأبط شراً، على ضآلة جسمه يحمل بين جنبيه قلباً لا يهاب الموت. وهذا الجسم تحمله ساقان تسبقان بعدوهما الظباء. كان إذا جاع يتبع الغزلان فينتقي أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه، ثم يشويه فيأكله. وكان ذكياً واسع الحيلة، يحسن التخلص إذا أحدقت به المخاطر. ولطالما أنقذته جرأته، وحيلته، وشدة عدوه.قيل: ((انه خرج مرة يشتار عسلاً في

أرض بني لحيان وهم بطن من هذيل، فلحقوه وأخذوا عليه طريق جبل وجدوه فيه يجني العسل، ولم يكن له طريق غيره، فاقبلوا عليه وقالوا له:استأسر أو نقتلك، فكره أن يستأسر كما كره أن يقتل، فصبّ ما معه من العسل على صخرة تنحدر إلى السفح، ثم عمد إلى زق العسل فشده إلى صدره، ثم لصق بالصخرة، فلم يبرح ينزلق عليها حتى انتهى إلى الأرض من غير طريقهم، ونجا منهم))

وروى صاحب الأغاني وابن الأنباري ((أن تأبط شراً أغار ومعه عمرو بن براق الفهمي على بني بجيلة . وابن براق هذا من اخوان تأبط شراً في العدو والغزوات . فساقا أمامهما قطعة من الإبل، ومضيا هاربين في جبال السراة، فخرجت بجيلة في أثرهما تعارضهما في السهل حتى بلغت ماء في الطائف لا بّد أن يمرا عليه عندما ينحدران من الجبال. فلما جاء الليل هبطا إلى السهل، يقصدان الماء، وقد أجهدهما العطش، فما كادا يقتربان من العين حتى وقف تأبط شراً منتصباً. ثم قال لابن براق: ((دعنا من الشرب، فإنها ليلة طرد)). قال: ((وما يدريك؟)). قال: ((إني لأسمع وجيب قلوب الرجال تحت قدمي)) وكان من أسمع العرب وأرهفهم أذناً. فقال له ابن براق: ((ذلك وجيب قلبك)) فقال تأبط شراً: ((والله ما وجب قط(أي خفق) ولا كان وجاباً)). وضرب بيده عليه. ثم أصاخ نحو الأرض يستمع، وقال: ((والله إني لأسمع وجيب قلوب الرجال)) فقال ابن براق: ((فأنا أنزل قبلك)). ونزل إلى الماء فشرب. ولم تعرض له بجيلة لطمعها في تأبط شراً. فلبثت متوارية عنه في الظلمة. ثم رجع فقال : ((ليس بالماء أحد)) . فقال تأبط شراً: ((هم لا يريدونك ولكن يريدوني، فإذا شدوا علي وأسروني، دعوتك أن تستأسر لهم، فلا تبعد عنهم ولا تمكنهم من نفسك، وأظهر لهم الاعياء بعد أن تجري مسرعاً)) فوعده ابن براق خيراً ومشى تأبط شراً إلى الماء حتى توسطه وشرع يشرب. فوثب عليه القوم من مكامنهم فأخذوه وأخرجوه من العين مكتوفاً. وابن براق قريب منهم لا يطمعون فيه لما يعلمون من عدوه. فقال لهم تأبط شراً: ((هذا ابن براق من أصلف الناس وأشدهم عجباً بعوه، وسأقول له استأسر معي، فسيدعوه عجبه بعدوه. إن يعدوا بين أيديكم ليريكم خفته فيدركه الاعياء، ويهون عليكم أن تمسكوه. فإني أحب أن يصير في أيديكم كما صرت، إذ انه خالفني. ثم صاح به((أنت أخي في الشدة والرخاء، وقد

وعدني القوم أن يمنوا عليك وعليّ، فاستأسر وواسني في الشدة كما كنت أخي في الرخاء)). فضحك ابن براق وقال: ((مهلاً يا ثابت أيستأسر من عنده هذا العدو؟)) ثم انطلق يعدو في سفح الجبل ذاهباً آيباً. كأنه الريح في انطلاقه أو كالفرس الكريم. ثم بدا عليه التعب، فأخذ يكبو ويتعثر. فطمعت فيه بجيلة، وشاقها أن تقبض عليه. وقال لهم ثابت: ((قد أمكنكم فخذوه)). فعدوا إليه بأجمعهم. فلما أن نفسوا عن تابط شراً عدا في كتافه مبتعداً. وعارضه ابن براق، فقطع وثاقه وافلتا معاً.

وعلى شدة ذكائه، وقوة عدوه. فإن حظه من النساء كان سيئاً. فقد خطب فتاة من بني عبس، فوعدته ورضيت به، وبعد فترة رفضته. فسألها عن السبب، وزعمت أن قومها قالوا لها: ((ما تصنعين برجل متعرض للموت بين يوم وآخر، وتبقين بلا زواج)) فانصرف عنها.

٣- نموذج من شعره:

١- إذا المرءُ لم يَحتَل

[هي الأبيات التي روى فيها الشاعر ما جرى له مع بني لحيان يوم صبّ العسل ونجا]

إذا المَرءُ لم يَحتَل وقَد جَدُّه ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر[١]

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً ... به الخطب إلا وهو للقصد مبصر[٢]

فذاك قريع الدهر ما عاش حول ... إذا سد منه منخر جاش منخرُ[٣]

أقول للحيان وقد صفرت لهم ... وطابي ويومي ضيق الجحر معور[٤]

١- الحيلة: الحذق في تدبير الأمور، والجد: الحظ ، والمعنى وقد أصاب حظاً واستنجد له حظ ، يريد أن الإنسان إذا نزل به ما يكره ولم يحتل في خلاصة منه أضاع أمره وقاسى منه ما يقاسي وهو مول مدبر.

٢- الخطب: الكرب، والقصد: الرشد ، يقول إن صاحب الحزم هو الذي يستعد للامر قبل نزوله كما قيل قبل الرماء تملأ الكنائن.

٣- قريع الدهر: المجرب للأمور، والحول: البصير بتحويل الأمور وقوله إذا سد منه كنخر إلى آخر البيت مثل للخلاص من الشدة.

هما خطتا إما إسار ومنه وإما دمٌ والقتل بالمر أجدر[٥]

٤- ميزة أدبه:

خشونة في المعاني والمباني، وتصوير حسي صادق، ونفس مكسوة بألفاظ، وألفاظ تترائى فيها العادات والنفسيات، وسذاجة فطرية حلوة، وجو صحراوي يضرب فيه حيوان الصحراء ونباتها، وغيثها وبرقها، اللّهم إلى نظام الطبيعة الفطريّة، وأوزان مستقيمة وقوافٍ شديدة تتصاعد من خلالها موسيقى الصحراء ذلك هو أدب تأبط شراً، وهو يروق من حيث ينفر، ويخاطب النفس من حيث يلتصق بالمادة، هو أدب اعترافي قصصي ملحمي هو أدب النفس والقلب وإن تربل الأشواك. والتحف بالرمال والنبال.

٥- وفاته:

قتل في بلاد هذيل عام (٥٣٠) وألقي في غار يقال له((رخمان)) فوجدت جثته فيه بعد مقتله.

إنه الصدق في كل صورة من صور حياته. البداية قاسية، والنهاية مهما تكن فإنها راحة للإنسان المتعب في هذا الوجود....

٤- لحيان: بطن من هذيل، وصفرت: خلت، والوطاب: جمع وطب وهو ساق اللبن، وقوله ضيق الحجر مثل لضيق المنفذ، والمعور: المنكشف العورة، أي أنه يقول لهم وهو في هذه الحالة، ومقول القول الآتي في البيت بعده وهو قوله هما خطتا على آخر البيت.

٥- هما أي الأمور والقصة ، وخطتا مثنى خطة وبينهما بقوله إما أسار أي أسر ومنة وإما دم أي قتل. وحذف النون من خطتا لطول الكلام، ويجوز في أسار ومنة الجر على إقحام إما بين المتضايفين. والمعنى ليس لي إلا واحد من أمرين على زعمكم أما استئسار والتزام منتكم إن أردتم العفو وإما قتل وهو بالحر أجدر أي أحق مما يكسبه الذل، وجملة((والقتل بالحر أجدر)) اعتراضية بين ما عده من الخصال.